الأدب في سير الأعلام :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢٢ —

البرسبيتريز والصورة الثانية :

قلت قيمة المرأة في نظر ملتن ، وانحط مستوى الطبيعة البشرية عما قدر لها من قبل في خياله وفكره ، وساءه أن يعرض معاصروه عن آرائه في الطلاق ، وما جاهد جهاده إلا لخيرهم ؛ وآلمه وكدره أن يخاصمه بعض الناس وأن يناصبوه العداء ؛ وجاءت مخالفة البرسبتيريز إياه بعد ذلك ، فكانت هي الطامة الكبرى .

قدر ملتن أن سوف ينظر إليه أهل عصره لما أذاع فيهم من رأي في الطلاق نظرتهم إلى مصلح عظيم ، وكان يرى في تطلع ذلك العصر إلى الإصلاح وشدة ميله إلى تغيير كل شيء وعلى الأخص في السياسة والدين حافزا يحفزه ويزيده استبشارا وأملا ، كما كان يدفعه إلى الجد ويوحي إلى نفسه أنه يعمل عمل أفذاذ المصلحين ، شدة ثقته في نفسه وكثرة الذهاب بها ويقينه من تمكنه وضلاعته واتساع أفقه ، وما يرى من إكبار أصحابه إياه ؛ ومن كان هذا شأنه كان خليقا أن يستشعر مرارة الخيبة مضاعفة وأن يبلغ من نفسه الألم مبلغا عظيما إذا لقيه الناس لا بمجافاته وإعراضهم عنه فحسب ، بل بمدافعة آرائه كذلك ومجاهرته بالسوء من القول ؛ وكان كذلك خليقا أن يغضب وأن يرد عمل أهل عصره إلى الغباء والجهل والجمود ، وإنه ليوقن أن ما بينهم وبينه من فرق في الثقافة والمعرفة كمثل ما بين الظلمات والنور .

ولقد أفصح عن مبلغ ما كان يضطرم في نفسه من حنق على قومه ، وعن مبلغ ازدرائه إياهم وسخره منهم في مقطوعتين نظمهما سنة ١٦٤٥ ؛ ففي الأولى راح يتهكم ويسخر من جهل خصومه قائلا إن كتابا اسمه « تترا كوردون » أذيع في الناس من وقت قريب فبلغ من جهل بعضهم أنهم نظروا حيارى إلى عنوانه قائلين ما هذه الكلمة التي اتخذت له عنوانا ، وقرأ بعضهم فأخطأ النطق وعجز عن الهجاء ؛ ثم يعجب الشاعر من هؤلاء ويستعرض بعض أسماء ألفوها ويتساءل قائلا : لم يكون عنوان كتابه أعسر منها في أفواه هؤلاء السادة ، وقد ألفت أفواههم العسير الجافي من الكلام ، ثم يذكر أول أستاذ للغة الأغريقية في كمبردج في القرن السادس عشر ، ومعلم الملك ادوارد السادس وهو سير چون تشيك ، فيناجي روحه قائلا : « إيه يا روح سير چون تشيك ! إن عصرك لم ينفر من المعرفة إذ كنت تعلم كمبردج وتعلم الملك الأغريقية كما ينفر من العلم عصرنا الذي نعيش فيه » .

وفي المقطوعة الثانية كان ملتن أشد حنقا وأوجع هجوا منه في سابقتها وحسبك منه قوله : « إنما جهدت أن أحمل أهل هذا العصر على أن يتخلصوا من قيودهم ، وذلك بالرجوع إلى قواعد الحرية القديمة المعروفة[1] ، وبينما أعمل عملي إذ أحاطت بي جوقة من البوم والخير والقردة والكلاب ، ففعلوا بي كما فعل أولئك القرويون الذين أحيلوا إلى ضفادع[2] جزاء بما أجرموا إذ هوشوا على نسل لاتونا التوأمين[3] اللذين صار لهما بعد ذلك ملك الشمس والقمر ؛ وذلك الذي نالني إنما هو كل ما يناله الرجل من جزاء إذ يلقي باللآلىء إلى فصائل من العجماوات تجهد في غبائها المجرد من كل حس في طلب الحرية ، حتى إذا جاءها الحق الذي يكسبها الحرية ثارت ضده وتألبت عليه ؛ وهؤلاء إنما يعنون القوضى إذ يهتفون بالحرية ؛ فأن من يعشق الحرية ينبغي أولا أن يكون خيرا عاقلا ؛ وإنا لنستطيع أن نرى إلى أي مدى يبعد هؤلاء عن الهدف

(١) يقصد ملتن ما جاء في التوراة من قوانين عن الطلاق ، وما أخذت به الكنيسة المسيحية في أيامها الأولى

(٢) جاء في الميثولوجيا أن جونو أرغم لاتونا عشيقة جوبيتر على الفرار فظلت تبحث لنفسها عن مأوى ، فبينما كانت تشرب من بحيرة في ليشيا إذ بصر بها بعض القرويين فآذوها وأهانوها وعكروا الماء بأيديهم وأرجلهم فحالهم جوبيتر بأن أحالهم إلى ضفادع .

(٣) ولدت لاتونا بعد ذلك أبولو إله الشمس وديانا إلهة القمر ؛ ولم يفرق ملتن هنا بين لاتونا ونسلها .

على الرغم مما ينفق من مال وما يبذل من دم[1] .

ولئن بلغ به الحنق هذا المبلغ على أهل عصره بوجه عام ، فقد كان حنقه على البرسبتيريز أشد من ذلك درجات ، وكان أسفه لما كان من موقفهم حياله أعظم وأقوى ، فمن أوهى الأمور وأقبحها أن تأتى الخيبة من حيث يلتمس الرجاء ، وأن تقع البلوى على يد من يطلب عنده العزاء ...

آلم ملتن وزاده غما على غم أن يعلم أن البرسبتيريز على منصاتهم وفى كتاباتهم يصفونه بالطيش ، ويقررون أنه يذيع مبادىء إباحية ، وأنه بما نشر إنما يمثل الإلحاد والفسوق عن أمر الله أتم تمثيل ؛ ولكن روحه القوية لم تهن وإن أصابها الحزن ، ونفسه الأبية لم تذل وإن اجتمعت عليه المحن ، وأقبل يهاجم البرسبتيريز كما هاجم القساوسة من قبل ، يأبى إلا أن يدافع أبدا عن الحرية فى أى صورة من صورها ، والمجال اليوم مجال حرية الرأى فما أحراه أن يناصر حرية الرأى .

اعتزم ملتن أن يعيد النظر فيما كان يرى من رأى فى الإصلاح الدينى ، وأحس فى نفسه الميل إلى مقاومة تشدد البيوريتانز وتزمتهم فيما يتصل بالدين وحياة المجتمع ، ذلك التزمت الذى بلغ منتهاه عند جماعة البرسبتيريز ، والذى جعل ملتن يؤمن اليوم إن هؤلاء ليسوا أقل تعسفا ولا جمودا من القساوسة ، وليسوا أوسع منهم أفقا ولا أخف حمقا .

ولم يكن غضب البرسبتيريز على ملتن بسبب ما جاء به من آراء حول الطلاق فحسب ، وإنما أغضبهم كذلك جرأته فى الدعوة إلى الاعتماد على العقل فى تفسير الأنجيل ، وعدم التقيد بأقوال من سبق من رجال الكنيسة فى تفسيره وتأويله ما لم يتمش ذلك مع المعقول ويوافق طبائع الأشياء

فالمعركة اليوم إذا معركة الرأى وحريته ، والعقل وكرامته ، وشخصية الفرد وكيانها ، وحسب ملتن من الفخر أن يكون فى ذلك طلعة بين أهل عصره كما كان طلعة فى حربه على القساوسة وفى آرائه حول الطلاق ...

وحدث بين جماعات البيوريتانز خلاف سنة ١٦٤٣ جعل لخروج ملتن على البرسبتيريز صدى أشد وأبعد مما كان يقدر له لو لم يقع هذا الخلاف ، وبيان ذلك أن مجمعا من البيوريتانز انعقد فى وستمنستر فى تلك السنة للنظر فى النظام الذى تخضع له الكنيسة فى انجلترة ، أى طريقة إدارتها ، وقد قضى هذا المجمع بإحلال البرسبتيرية محل الأسقفية نهائياً ، وتغيير كتاب الصلاة المتبع ، ووافق البرلمان على ذلك ، وكانت أغلبية أعضائه يومئذ من البيوريتانز المؤيدين للبرسبتيرية ، ولكن جماعة من المستقلين خالفوا أعضاء مجمع وستمنستر فى بعض الأمور إذ أحسوا فيها تزمتا وشدة وطالبوا بشىء من الاعتدال ، ونشر خمسة منهم كتابا يحتكمون فيه لا إلى البرلمان وحده بل الرأى العام فى المملكة كلها ؛ فلما خرج ملتن على البرسبتيريز سنة ١٦٤٤ ، وأخذ يطعن فيهم وهو الذى عرف بانتصاره للحرية أيد ذلك قضية المستقلين ، وأحاط البرسبتيريز بشبهة التعصب ومجافاة حرية الرأى .

وقد بدأ الخلاف بين ملتن والبرسبتيريز كما قدمنا فى أواخر سنة ١٦٤٤ وذلك بعد أن ذاع كتيبه « قانون الطلاق ونظامه » وبعد أن نشر مقاله الذى جعل عنوانه « رأى مارتن بوسر فى الطلاق » ، فقد طالبوا بمصادرة كتيبه لأنه طبعه بغير تصريح مخالفا بذلك قانون الطبع الذى هو من صنع أيديهم والذى أرادوا به حماية نظامهم الكنسى ، فرأى ملتن إذ ذاك أن أصدقاءه يعملون على خنق الحرية كما يعمل الأساقفة ، ومن ثم دب بينه وبينهم الخلاف؛ وهل يظل صامتا حيال صيحتهم؟ذلك ما لا تطيقه نفسه وما لا تتطامن له كبرياؤه ؛ وذلك ما لا يتفق مع حبه للحرية حبا درج معه منذ نشأته ، وإذا فلا بد من رد ولا بد من صيحة يكربها عليهم ويدفع بها عن الحرية ؛ ولكن البحث فى الطلاق يملك عليه وقته وفكره فليدعه إلى حين ، وليجعل همه إلى كتيب يناصر به حرية الرأى ، ويهاجم فيه الرقابة على هذه الحرية هجوما عنيفا .

ويفرغ ملتن من كتيبه هذا وينشره فى نوفمبر سنة ١٦٤٤ أى قبل نشر كتيبه « تراكوردون » بنحو أربعة أشهر ويعرف هذا الكتيب باسم « ايروباجيتيكا » ، وفيه يحتكم إلى البرلمان وإلى كل ذى رأى حر .

وبلغ من جرأة ملتن وكبرياء نفسه وتحمسه للحرية أنه نشر هذا الكتيب كذلك بغير إذن ، فكان عمله هذا تحديا للبرسبتيريز من ناحيتين ، فهو يهمل قانون الطبع الذى وضعوه وقرروه ، وهو فى الوقت نفسه ينكر بكتيبه هذا الرقابة على الكتب كما تتمثل فى ذلك القانون ويراها قيدا بغيضا لحرية الرأى فعنده أنه يجب القضاء على هذه الرقابة « حتى لا يكون الحكم على ما يجوز طبعه وما لا يجوز لفئة قليلة أكثرهم لا يعدون فى

(١) يشير ملتن إلى الحرب الأهلية الدائرة الرحى يومئذ .

الغطاء إذ أن كفايتهم عادية شائعة » .

وكان الكتيب في صورة خطبة مكتوبة موجهة إلى البرلمان وقد جعل ملتن شعاره عبارة مقتبسة من كلام يوريبيد أثبتها بنصها الأغريقي ؛ وهو بعد خطبة فليس فيه درس وفق منهج معين أو تمحيص لما يعرض له من آراء ، أو نقض للأفكار التي يؤيد بها رأيا أو يخالف رأيا ؛ ولكنه على الرغم من ذلك أو لعله بسبب ذلك كان من أحسن ما نشر ملتن من هاتيك الكتيبات ، فهو فيض نفس نبيلة حرة ، تفهق صفحاته بكلام من خير ما كتب في الحرية فصاحة لفظ وبلاغة عبارة ورقة شعور ونبل حس وشجاعة رأي وحرية قول ...

وكان الأمل والحماسة ملء كتيبه هذا ، فلئن خاب أمله في البرسبتيريز فليسوا هم كل شيء ، بل إنهم وقد نصبوا أنفسهم أعداء للحرية لم يعد لهم من الأمر شيء ، وإن انجلترة لتتجه نحو أمل جديد تراه في شخص كرومول وهو زعيم المستقلين والجنده الظفر كما تنبيء حوادث الحرب ، وإن المستقلين جميعا وطلاب الحرية ليلتفون حوله ، فهو في غده أمل انجلترة ونصير الحرية وبطلها ؛ ذلك ما كان يتحدث به ملتن إلى نفسه وذلك ما بث في كتيبه الرجاء .

وزاد الأمل تمكنا من نفسه أنه وقد استعدى عليه الرقباء في البرلمان لم يمسه شيء مما أرادوا به من سوء ، إذ لم يرض مجلس اللوردات أن يشايع البرسبتيريز فيما يذهبون إليه من رغبة في التضييق على حرية النشر ؛ واغتبط ملتن أيما اغتباط وارتاح أيما ارتياح إلى هذه المعاملة التي زادته ثقة في نفسه ، ويقينا من علو مكانته في قومه .

ويحس المرء لذة قوية إذ يقرأ هذا الكتيب ، فليس فيه مثل ما في كتيباته التي أرسلها على القساوسة من غل الخصومة وعنف الهجاء ، وإنما يسوده الهدوء وحسن السياق ؛ وهو فضلا عن ذلك قريب إلى العقليات الحديثة بما حواه من أفكار حول حرية الرأي وحرية النشر ، وحسبك منه بعض ما كتبه ملتن عن قيمة الكتب مثل قوله : « إن من يقتل كتابا طيبا كمن يقتل رجلا ؛ بل إن من يقتل رجلا إنما يقتل مخلوقا عاقلا ، في حين أن من يقضي على كتاب قيم فقد قتل العقل نفسه ؛ وإن كثيرا من الناس يعيشون عالة على هذه الأرض ، أما الكتاب الجيد فهو دم الحياة الغالي ، دم كاتبه ، ذلك الروح المبقرى ، وقد جنط ذلك الدم واختزن كنز ثمين ليبقى ذخر الحياة بعد حياة » .

ويقع المرء فيه على كثير من العبارات المتينة الجيلة جمعت بين الإيجاز والشمول كقوله : « يظل الأحمق أحمق أوتي كتابا جيدا أو لم يؤت كتابا قط » . وكقوله : « يجد المطهرون كل شيء مطهرا ، وليس ذلك في طعامهم وشرابهم فحسب ، ولكن في كل صنوف المعرفة الطيب منها والخبيث فلا يمكن أن تفسد المعرفة كما لا يمكن تبعا لذلك أن يفسد الكتب ما دامت الإرادة والضمير لا يتطرق إليهما الفساد » .

ويأتي ملتن بطائفة من الآراء تنم عما كان يجول في خاطره بعد القطيعة بينه وبين البرسبتيريز ، فهو ينكر اليوم عقيدة القدر المحتوم التي اعتنقها البيوريتانز عن كلفن ويأخذ بعقيدة الإرادة الحرة التي نادى بها أرمينيتس ويصف هذا الأخير بقوله « أرمينيس الواضح البين » وينفر ملتن من تزمت البيوريتانز وتشددهم في كل شيء ، وبعد أن كان من قبل وهو الشاعر الذي يعشق الجمال ويحسن الحياة إحساساً قوياً في حيرة بين ما تقتضيه الطبيعية وما تقوم به الروح ، نراه اليوم يعلن أن في وسع المرء أن يجمع بين الإثنين في غير حرج ، وقد كان ما تقوم به الروح عنده قبل ذلك في المحل الأول ، نجد ذلك واضحاً في قوله « لماذا خلق الله العواطف وبثها فينا ، ولماذا خلق مسرات الحياة وأحاطنا بها ، وليس معنى ذلك أنه يبيح الاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده في غير قيد ، ولكنه يريد ألا يتشدد فيرى في كل زينة وفي كل متعة ما يوبق الروح كما يفعل الغالون من البرسبتيريز ، ولقد باتوا عنده كالقساوسة حماقة وضيق عقل وسوء تعصب كما يتضح في قوله إذ يشير إلى خنقهم حرية الرأي « إنما تخرج أفاعين القساوسة براعمها من جديد » .

وبعد ملتن في الواقع بعد اختلافه مع البرسبتيريز من المستقلين ، بل لقد كان أكثر من مستقل ، فسوف لا يؤيد بعد اليوم نظاماً كنسياً ما أو يأخذ برأي من الآراء لا يتحول عنه أولا يقلب النظر فيه ؛ أو ينشيء كنيسة من الكنائس غشيانا رتيباً ، وإنما تسيطر عليه روح دينية توحي إليه هواه وطهره . وإن كان مستقل الرأي لا يقبل شيئا لا يطمئن إليه عقله ولا يتقيد بمذهب معين ؛ على أنه وإن لم يتقيد بمذهب لا ينسى كراهته للقساوسة من أشياع روما والكاثوليكية بوجه عام ، كما لا ينسى غضبه على البرسبتيريز ولا اتهامه إياهم بأنهم أعداء الحرية ، وأنهم لذلك كالقساوسة عقبة في سبيل الإصلاح الحق ، وأنهم يبالغون في تزمتهم وتشددهم مبالغة تفضي حتما إلى النفور من مذهبهم .

(يتبع)

الضيف